ظلال اللحظات

قصة بقلم عبد الرحمن الربيعي

ان اتوصل للخلاص الاخير ، لتكن الخيبة السيف القاطع لعنقي المرصوص ، ووجهك يا يسرى كان يحترقني كالرصاصة ، وما دمت هكذا فلم الطموح بعد ؟!

في طفولتي كنت انطرح على ظهري فوق سطح الدار اذ كانت ليالي صيف الجنوب رائعة كالاحلام ، كنت اعد النجوم حتى اتعب وانكفيء على وجهي في سبات طويل ، لقد كنت يومذاك صبيا ملعونا ، امسك مصيدتي بيدي واطارد الطيور في اعشاشها واتشاجر لاتفه الاسباب واشتم اجداد الناس ، وكان (ناهض) ذلك العجوز الطيب الذي يقطن قبالة بيتنا يأخذني معه الى النهر ليعلمني العوم وكان يقول : (انت كالسمكة تخرج من البيضة وهي تعرف العوم) ، وكان (ناهض) قرويا طيبا يؤمن بأن الانسان لا يتطهر الا بماء النهر وانه سقط مغشيا عليه عندما دخل الحمام لاول مرة في حياته ، وحتى في هذه اللحظات المتأخرة جدا احس بانني لا زلت اهواك ، وكلي علم بان طريقي لن يكون طريقك والخطوات لن تلتقي ولكن القلوب اختارت ان ترتجف وسط هذه الازمة المريعة بالحرام كل الحرام ان نوصد قلوبنا ولا نتركها تحلق في سماء من يحبوننا .

وكانت امي السمراء الشاحبة تفقدني في الليالي وعندما تراني مستيقظا وترى عيني شاخصتين في النجوم كانت تقول :

ـ هل رجعت لعد النجوم ثانية ؟

ـ احبها يا امي ، لماذا لا تأتين الي بواحدة ؟

ـ انها ملك لله وحده ، وملكه لا نعرف حدوده ولا نطيق احصاءه .

ـ وهل يكرهني اذا احببت النجوم ؟!

ـ لكن لا تعدها فستثبت ببدك ثؤلولة !

واخاف من ذكر الثؤلولة هذه ، أتذكر بأن واحدة قد نبتت في يدي يوما وقد ذقت آلم الالم عندما شنقها والدي بخيط ابيض نحيف وحرق مكانها بعقب سيجارته ، ولكنها عادت لتنبت ثانية وامتلأت يدي بالثآليل .

كانت طفولة ساحرة يا يسرى ، وكان في سطح دارنا برج حمام كبير ، وضعت فيه ما يربو على الخمسين حمامة ملونة ، انركها تطير كل صباح واصفر لها واصفق بيدي حتى تحلق كالانجم في الفضاء ، وكان الجيران يستيقظون على صوتي ويتشاجرون مع امي ، ولا زلت اتذكر (قسمة) البدينة السليطة التي كانت تشتمني كل صباح ، واذكر ابنها (ع د) الذي كنت احول ثوراني صوبه فاضربه لاتفه الاسباب واتوعد به الفرص ، واتذكر يوم كنا نقرأ القرآن عند الشيخ (داغر) ، وكان يكرهني لشاكستي واكرهه لانني سجين عالمه وقد تقيأت دمي ذلك اليوم وتجمع العابرون على صراخي ومن يومها هربت منه بعد ان ادميت رأسه بطابوقة كبيرة وكادت الحادثة ان تصل الى سمع الشرطة لولا والدي الذي اعطاه دينارا وقتل الحكاية في مهدها.

انني لا زلت اتذكر كل الماضي بنفس ذلك النقاء الذي اضعته فيما بعد ، واحس وكأنني اتعبد في محراب واسع ، وفي اليوم الذي دخلت فيه المدرسة ، جلست على رحلتي ولكن خيالي كان مشدودا الى زقاقنا و (ناهض) و (قسمة) و (عاند) وامي والحمائم التي قد تنسى ان تطعمها ، وشعرت بالغربة وسط هذه القيود وانا الذي اعتدت ان اقفز حرفيا من سطح الى اخر ، وبصقت عند رؤيتي للمعلم الاصلع القميء وتساءلت : كيف يمكنني ان ارى وجهه المقرف كل صباح ؟! وقد وضعت في جيبه نواة مشمش ذات يوم ، وقد اثارت الحادثة استجواب جميع الطلاب ولم يصلوا الى الجاني الحقيقي وعوقب احد زملائي بعشرين ضربة عصا بسببي .

كنت عاتيا يا يسرى ومشحونا بنزوات وانطلاقات كثيرة ، ولو انك رأيتني ذلك الوقت ببنطلوني القصير وساقي السمراوين المليئتين بالكدمات ، ولو رأيت شعري الذي كان والدي يصر على قصه بالموسى ولا يترك له اثرا ، لو رأيت كل هذا وعشت معي صباي النزق لربما ضحكت من ذلك الماضي ، لو كنت مثل (صبيحة) جارتنا الصغيرة حيث كنا نمثل معا دور العريس والعروس ، لكنها لم تدخل مدرسة بعد ذلك ولم تتعلم وقد تزوجت مبكرة من قريب لها ، وعندما رأيتها بعد سنين كانت تبدو كالقرويات القادمات الى المدينة فضحكت في سري : كيف احببتها يوما ؟!

وفي يوم مضى ثارت ثائرتي على (رشدي) الطفل الذي كان ينافسني في شراسته ، وكنا قد اتفقنا انذاك على شراء كرة كبيرة ، وقد جمعنا المبلغ فلسا فلسا حتى نؤلف بعد ذلك فريقا ينازل فريق (شارع الهوى) و (محلة الجديدة) و (السيف) ، لكن (رشدي) كان يصر على ان يكون الرئيس ، ولم ارض بذلك ، فقد كنت مارقا متكبرا منذ طفولتي وهذا الداء لاحقني حتى الاخير وتحول الى كبرياء قاتلة شوهت الكثير من مشاريعي وافقدتني صداقة الكثيرين ، وقد تشاجرت معه امام جميع الاولاد ، وكان قويا حقا وكاد ان يدحرني لولا مجيء أبيه الذي اوطرني ضربا فوقعت كالقتيل وتجمع اقرباني واقرباؤه وكانت معركة حامية الوطيس استعملت فيها العصي والاحذية والعقل والطابوق لم تشهد المحلة مثيلا لهـا ، وقد انفق والدي وابن اخيه ليلتهمـا في موقف الشرطة لان ابن عمي قد شج رأس احد اقرباء (رشدي) ، لكن غريمي قد اصبح صديقي فيما بعد ، ويبدو ان الشر قد استحوذ عليه حتى الاخير وقد سمعت بانه الان نزيل واحد من السجون .

كانت الدنيا تبدو حلوة كالسباحة في النهر في امسيات الصيف ، وليست كما هي عليه اليوم فالدروب قد اقفلت امامي وعيناك هما المنقذ لي وهما مصب الاحزان القاتمة وهما نشيد البدء الموعود .

وها انا الان اتمدد على سطح الدار بعد عشرين عاما ، ولكن لست كما كنت في الماضي ، امي انتهت و (ناهض) و (قسمة) ، ومدينتي الاولى قد هجرتها بحثا عن المجد والخلاص ، ولم اعد طفلا يرتدي بنطلونا قصيرا وساقاه مليئتان بالكدمات ، فأنا اليوم رجل طويل اسمر الجبهة واحلق ذقني كل صباح واشاكس النساء في الدروب والباصات ، و (صبيحة) اصبح لها ولد قاسي الملامح وقد

كن تلميذي قبل عامين ، اشياء كثيرة تغيرت يا يسرى ، وربما انت كذلك ، فقد طال انيني أمامك دون أن تحاولي انقاذي ، اعد النجوم ولعلني أن أحاف من ان نبت لي يدي تؤلوة ، وقبلك احببت يا يسرى وهمت بعيون من أحببت وقلت الشعر وثملت ، وقبلك يا يسرى عشت مع الساقطات والمشردين وافلست وجعت وجاهدت ، لكن الغريب ان وجهي خال لا يحمل شيئا من هذا ولو كان الماضي يترك حزوزا لكانت جبهتي تسير قرفك ولم تحمل عينيك على الالتفات صوبها مرة .

... ويوم رأيتك ادركت انك نهاية المطاف ، ولكن يبدو لي ان الامور ستبقى ضدي حتى الاخير ، لذا ترددت طويلا حتى كلمتك ، كنت احس بأن لا حاجة لي لان اكلمك كلمة واحدة رغم اننا نعرف بعضنا وغالبا ما نبتسم عند اللقاء ، وفي اليوم الذي لا أراك فيه احس بأعمق حزن يصل في ضلوعي ، لن اكلمك فما الداعي لهذا ؟ الطيور والحيوانات تحب وتآلف بدون ان تنبس بكلمة ذات حروف رنانة ، أن بيننا خيوطا متينة تشدنا كالوتر ، وعندما حدثتك عن حبي تلك الظهيرة شعرت بأنني قد أهنت احاسيسي عندما حولتها الى كلمات نطقها العشرات غيري .

لقد عشت الحب قبلك كأعنف ما يكون ، فنحن جيوش المحرومين الذين شاءت الاقدار ان تجعلنا الجسر الطويل ليعبر علينا الاف الاغبياء سنبقى أبد الدهر جياعا تروينا الكلمات الدافئة وهي تنطلق من الافواه التي نرتجف شوقا للثمها ، وعرفت قبلك (ليلى) اذ كنت متطلعا لان ينتظرني قلب صغير ، وكانت عنيدة مشوهة تتمنى ان يكون فارسها قادما وبيده مقود سيارته الفارهة ، وانا المعدم البائس المتصعلك في المقهى والحانات بماذا اجيء اليها ؟ ان الخير كله في انني استطيع ان انتعل حذاء معتدل الثمن ، وذهبت (ليلى) عني بعد أن تركت لوعة لم انسها الا بعد ضنك مرير فرغم تلوثي لا تزال في اعماقي كبرياء البدوي الراحل في وحشة الصحراء على ظهر ناقته العزيزة ، وخرجت من التجربة سالما لكنني لست الاول فادميت كل من تقع في طريقي ، كان في نيتي ان اتعامل مع الشيطان من اجل ان اعلو وانا اعرف ان اللعبة غادرة وان الحياة لا تؤتمن ولكنني لا اريد ان اعيش ضآلها ، اريد أن اتسلق صوب الطابق الاعلى واريد ان تتأملني العيون باحترام وان ينهض الجميع عند قدومي ولا انزوي في المقهى ككلب اجرب .

... ويوم رأيتك يا يسرى كنت شابا افرط في انانيتي رغم بؤس اعماقي ، وقد شوت الشمس سحنتي لكثرة ما صليت في محرابها ولا زلت اعيش روعة هذه الامسيات الجديدة وانا اراك فاتحة باب حديقة الدار ومتمددة بارتخاء على المقعد الخيزراني الطويل وشعرك القصير تداعبه انسام المساء وانت شقراء كالشمس وانا المحترق المولع بك حتى الجنون ، احببتك بعد أمي ، تلك التي كانت حزينة مثلي ، وكانت تتكلم بثقة وذكاء رغم انها لم تجلس على مقعد درس ولم تلبس حذاء عالي الكعب ولم تعرف أن لكل زي موسمه ، وكانت تسهر على رعايتي كالرجل الشديد عندما يغيب والدي ، وكانت ارق من الماء وهي تهدهدني في فراشي وتحدثني عن (حمدة وحمد) وعن النسر الذي سرق ابنة السلطان ، ويوم موتها لم اكن كبيرا ولكنني لا زلت اسمع حشرجات الموت تنطلق من حنجرتها الحبيبة بأنين ابدي عتيق ، وكانت ممددة وقد صغر حجمها ، ولم اصدق ان هذه هي امي الباسلة ، امي الرائعة الطيبة وماتت ، وذهلت ، احقا انها قد انتهت ؟! وفرت الدموع من عيني ولم ابك ، واخذت اتأمل النساء بانبهار وذهول وهن يلطمن في ساحة الدار .

وسألت ابي :

ـ اين ذهبت امي ؟

ـ لقد ذهبت الى الله .

ـ اكل شيء يذهب الى الله ؟ كانت تمنعني من عد النجوم لانها ملك الله وهي اليوم ذاهبة اليه ، الا يمنعها من الدخول في بيته ؟

ـ ابدا فأمك نظيفة يا ولدي .

ـ ومتى اراها ؟

ـ قد تطول رحلتها عنك .

ـ ومن الذي يبقى معي اذا سافرت ؟

وانتحب ابي ولم يرد علي بشيء .

ونسيت امي يا يسرى ونسيت (ليلى) و (صبيحة) ولم يبق في ذاكرتي سواك ، رغم انني اجهل موقفك اليوم ، وقد اعدت عليك مرارا بأنني لا استجدي عواطفك ابدا ، بعد كل هذا الطوفان الطويل انت البقية الباقية ، اتذكرك الان بحزن ، مع انني قد التقيت بك في موعد عابر صباح اليوم ، كنا فيه منفعلين ولم نقل كلمة ذات معنى ، وافترقنا والجراح قد ازدادت صليلا ، اتذكرك يا يسرى وعبد الوهاب ينتحب في المذياع القريب مني ، الجو مظلم خانق ، وانا وحيد في بغداد ، منذ شهور لم ار أهلي ولا اخوتي ولا احبائي ، كم كنت رائعة عصر اليوم وانت في حديقة الدار بثوبك الوردي الهفهاف ، تستلقين على الحشيش الاخضر وتبتسمين بطفولة رغم جنون عينيك ، ومضيت عنك وقلبي يسرع في نبضه ، والدم يحتقن في عروقي ، انني كئيب جدا ، لقد قلت لي بأنك سترحلين قريبا ، اوروبا لغز كبير وفزاعة قد تصطادك ، وانا محب موله أضاع تاريخه ولم يخطط لايامه القادمة بعد ولن يمنعني عائق عن اللحاق بركبك ايان ذهبت ، فلم يعد لي شيء ، امي رحلت وطالت غيبتها في السماء ، و (ليلى) ام الان ، لها زوج وبيت واحلام ، لا تفكر الا بأسعار الاطعمة والقماش وارتفاع ايجارات البيوت ، وانت يا يسرى كئيبة مقفلة جدا ، قلت لك : اما كفاك تعذيبا لي ؟ متى تهدأ ، ولم تردي بشيء ... يسرى ... يسرى ... يسرى ... ماذا بعد كل هذا الانين ؟! اشعر بالحمى تطفيء عيني والليل بدون وجهك برهيب مخيف ، وازيز طائرة راحلة يشوه الصمت .

سأدخن الان ، قد اقتل نصف ما بعلبة سجاري حتى اتعب ، وتمتد انامل الناعمة ، لتداعب شعري واغفو بدعة وسلام على لمساتها الحنون .

بغداد — عبد الرحمن مجيد الربيعي

اكاديمية الفنون العليا

صدر حديثا :

ثورة الفقراء

بقلم رجاء النقاش

ثورة الجزائر المظفرة التي وصفها الرئيس بن بيللا بأنها « ثورة الفقراء »

طبعة جديدة — منشورات

الثمن ليرتان لبنانيتان — دار الاداب